تحقيقات لغوية لكلمات مغربية

الأستاذ عبدالقادر زمامة
(فاس)

الشكازة والشكاز

لي مع هذه المادة اللغوية تاريخ طويل . بدأ يوم عثرت في أبحاثي الحضارية على حرفة كانت مصدر معاش لكثير من الناس في الاندلس والمغرب ...!

فالحرفة كانت تسمى الشكازة ..! ومحترفها يسمى الشكاز .. وكانت هناك حوانيت وفنادق للشكازة والشكازين ..! في المدن الاندلسية . والمدن المغربية ..!

والغريب أن هذه المادة اللغوية كانت معروفة ومستعملة في المغرب . ولاسيما في مدينتي فاس ومكناس الى اواسط القرن الثالث عشر الهجري كما يتجلى ذلك من الوقوف على الحوالات الحبسية ، وبعض الرسوم القديمة . واسماء بعض الاسر التي كانت تحمل اسم « الشكاز » كما تحمل تحريفه « السكاج » ..!!

وهناك الآن في مدينة تونس مجموعة حوانيت (السكاجين) تجاور حوانيت (السراجين) وكلمة (السكاجين) محرفة عن كلمة (الشكازين) كما نص على ذلك محقق فهرسة الرصاع المطبوعة بتونس سنة 1967 م (1)

وفيما يرجع لمن عرف في المغرب بهذا الاسم « السكاج » المحرف عن « الشكاز » نجد المؤرخ القادري يذكر في كتابه « المقصد الاحمر » بعض اصدقائه قائلا :

« صاحبنا الخير المرضي ابا فارس عبد العزيز ابن علي السكاج حفظه الله » (2)

وابو العباس ابن القاضي يترجم في كتابه « درة الحجال » ترجمة قصيرة لمنصور بن علي السكاج الفقيه ..! ولا ندري هل هو من المغرب .. ام من المشرق .. لكنه يحمل هذا الاسم السكاج ..! (3)

ونجد المؤرخين الذين ترجموا لابن البناء العددي المراكشي المتوفى سنة احدى او ثلاثة وعشرين وسبعمائة يذكرون من جملة كتبه في علم التنجيم رسالة العمل بالصفيحة (4) الشكازية وهذه الصفيحة الشكازية معروفة الى جانب الصفائح الاخرى في علم التنجيم ولاسيما عند المتقدمين من علماء هذا الفن ...!

بعد هذه الجولة حول الاسم نريد ان نعرف المسمى والمدلول ..! فنتساءل

---

(1) انظر فهرسة الرصاع بتحقيق محمد العنابي ص 122
وانظر عثمان الكعاك في كتابه (التقاليد والعادات الشعبية) ص 11 .
(2) انظر المقصد الاحمر ج 2 ص 234 .
(3) انظر درة الحجال ج 2 ص 318
(4) جذوة الاقتباس ص 76 .

عليه دبابوذ تسربل تحته
ارندج اشكاف يخالط عظلما

وقال ابن دريد هي الجلود التى تدبغ بالعفص حتى تسود ..!

وانشد العجاج :

كانه مسرول ارندجا »

وصاحب معجم «متن اللغة» يذكر فى المادة نفس ما عند صاحب (اللسان) وما عند صاحب (القاموس)

والجواب الشافي لشرح كلمة الشكاز وبيان مدلولها الذى كان لها فى الاندلس ..! ومن الاندلس نقل الى المغرب ولا مانع من ان يكون الواقع عكس ذلك ... !! نجده عند امام أهل التصوف الشيخ محيي الدين بن عربي الحاتمي دفين دمشق سنة 638 هـ فى كتابه المسمى « رسالة روح القدس فى محاسبة النفس » حيث يترجم لشيخه ابي علي حسن الشكاز الاشبيلي . ويشرح الكلمة هكذا :

« والشكاز عندنا المشتغل بهذه الجلود الرقاق على نوع ما يبيضها . ويلينها كثيرا بعد شدتها . فاتخذ اهل البلدة هذه اللفظة لفظة الشكاز لقبا للرجل لا يقوم بالنساء .....!!! »

ثم ذكر الامام محيي الدين بن عربي بعد هذا التفسير نادرة لشيخه الشكاز المذكور زادت هذا التفسير ايضاحا وتبيينا .. (9) .

واللقب الذى ذكره ابن عربي فى آخر النص، معنى من المعاني المجازية للكلمة ..! نص عليه اصحاب المعاجم اللغوية ..! واطنبوا مع اهمال واضح ..! للمعنى الحقيقي او الاصطلاحي بأدق عبارة .. ومن اجل ذلك تعبنا كثيرا فى البحث عن المدلول الحقيقي للكلمة ..! ولولا نص ابن عربي الذى كتب فى القرن السابع الهجري لبقينا نسبح فى فضاء من الحدسيات ...!!

— ما هي الشكازة ..؟

— ومن هو الشكاز ..؟

والجواب الشافي لن نجده فى معاجم اللغة ، القديم منها والحديث ...! ولن نجده فى تكملتها للمستشرق الجماعة البحاثة (دوزي) ..!

فابن منظور فى لسان العرب يذكر المادة (5) :

شكزه . نخسه بأصبعه .. ويذكر الشكاز بمعنى مجازي ..! ويذكر «الاشكز» بمعنى ضرب من الأدم..

وينقل عن الازهري انه معرب عن (ادرنج) الفارسية

والفيروزاباذي يذكر المادة كما ذكرها صاحب اللسان و « يتوسع » فى ذكر المعاني المجازية لكلمة شكاز ..! ويذكر فى مادة (ح . م . ر) هذا النص:

« الحمير والحميرة : الاشكز لسير فى السرج »

وكتب شارحه عليه :

« الحمير والحميرة : الاشكز اسم لسير ابيض مقشور ظاهره فى السرج يؤكد به » (6)

ودوزي يذكر الشكاز ولا يشفي غليلا ..! ويذكر كلمة اشكز فى اللغة البربرية بمعنى الرجل الذى لا لحية له ..! والشاة المجزوزة الصوف (7)

وحيث ان المعاجم العربية تقول ان كلمة اشكز معربة عن كلمة « ادرنج » الفارسية فانني رجعت الى كتاب «المعرب» لابي منصور الجواليقي. فوجدته لم يذكر كملة «اشكز» ولم يذكر كلمة «ادرنج» وانما ذكر كلمة اخرى هي كلمة « ارندج » وكتب فى شرحها هذا النص (8) .

« الارندج . واليرندج اصله بالفارسية رنده . وهو جلد اسود ..! وانشد الاعشى :

---

(4) جذوة الاقتباس ص 76
(5) انظر مادة شكز فى لسان العرب
(6) انظر مادتي شكز وحمر . فى القاموس المحيط وتاج العروس .
(7) معجم دوزي ج 1 ص 778 .
(8) (المغرب لابي منصور الجواليقي ص 16 تحقيق احمد شاكر
(9) انظر رسالة روح القدس . ط . دمشق سنة 1964 م ص 62

والمستغرب ان اللقب الذى اشار اليه ابن عربي وذكر انه كان معروفا عندهم فى اشبيلية ..! وذكرته المعاجم العربية ..! نجده مستعملا فى نفس الدلالة او ما يقرب منها فى القرن الرابع الهجري ..! فى الشرق وفى مدينة بغداد بالخصوص ..!

وذكر ان القصة الشهيرة المسماة : حكاية ابي القاسم البغدادي . التى كتبها محمد بن احمد الازدي وعاش فى القرن الرابع الهجري .. نجد فيها كلمة « شكاز » فى سلك الاوصاف التى وصف بها المؤلف بطل قصته ابا القاسم البغدادي وقال عنه انه كان :

« شكازا طنازا همازا غمازا همزة لمزة » (10)

فالكاتب استعمل فى القرن الرابع كلمة « شكاز » فى معنى التهكم والسخرية والتعييـر ..! ولا شك انه يقصد المعنى المجازى الذي أشارت اليه المعاجم العربية بل واطنبت فيه.. ! او قريبا منه حسب العرف والاصطلاح السائد ..

بعد هذا العرض عن الاسم والمسمى لكلمتي الشكازة والشكاز نستطيع ان نعرف مدلولهما عند المغاربة والاندلسيين ...!

فالشكاز كان واسطة بين الدباغ الذى يدبغ الجلود ..! وبين الصناع الذين يستعملون الجلد فى اعداد الاحذية ..! او السروج ..! او الادوات الجلدية الاخرى ... !

فهؤلاء الصناع لا يتناولون الجلد الا بعد ان يكون الشكاز قد عمل فيه عمله بالتليين والصقل وازالة الزوائد ... وهذه الحرفة ما زالت قائمة . الا ان اسم الشكاز صار نسيا منسيا ..!!

وكانت حوانيت الشكازين كثيرة بفاس حول مسجد القرويين .. وحول الضريح الادريسي .. كما يتجلى ذلك عند مراجعة الحوالات الحبسية المتعددة ...

اما الفندق الكبير الذى كان مشهورا بهذه الحرفة .. ويشتغل به عدد كبير من الشكازين فهو الفندق المهدوم الان الموجود بسوق السبيطريين .. والذى كان وما زال يعرف باسم فندق الجلد ..! او فندق السبيطريين .. !

والدليل على ذلك اننا نجده فى الحوالة الحبسية لمسجد القرويين ، مسمى كهذا (فندق الشكازين) .. وتزيد الحوالة فى وصفه .. انه متصل من داخله بفندق الشماعين .. والحوالة التى بها هذا النص كتبت اوائل القرن الثالث عشر الهجري ! (11)

وماتت كلمة الشكازة .. وكلمة الشكاز .. ولم يبق لها رسم ولا طلل ..! الى درجة انني عند اعداد قائمة النشرة الاولى من اسماء الحرف المعروفة بفاس حذفت اسم الحرفة واسم محترفيها لسببين :

الاول : انه لا ذكر لهما الآن ...

الثاني : انني لم أكن على علم بمدلولهما الحقيقي حيث انني كنت اعرف الاسم دون المسمى ..!!

مقرة والنسبة اليها

اشتهر على السنة الباحثين وفى اقلامهم ثلاثة اعلام تاريخية شرق ذكرهم وغرب. واعجم واعرب..! وهم :

1) ابو عبد الله محمد بن محمد بن احمد المقري قاضي فاس على عهد ابي عنان المتوفى سنة 759 هـ

2) ابو عثمان المقري مفتي تلمسان وعالمها المتوفى سنة 1010 هـ

3) ابو العباس احمد المقري مؤلف نفح الطيب المتوفى بالقاهرة سنة 1041 هـ

وكلهم من الاسرة المنتسبة الى مدينة مقرة التى ذكرها الرحالة ابن حوقل (12) وابو عبيد البكري (13) والجغرافي الادريسي . ثم ياقوت الحموي الذى افادنا بنصه فائدة كبرى حيث انه نص على ضبطها قائلا (14) :

---

(10) انظر حكاية ابي القاسم البغدادي ط . كول ونتر . فى هيدلبرج 1902 م ص 3
(11) انظر الحوالة الحبسية السليمانية ص 94
(12) كتاب صورة الارض لابن حوقل . ص 67 . ط . بيروت
(13) كتاب المغرب ص 51 وص 144
(14) معجم البلدان ج 5 ص 175 . ط . بيروت

« مقرة بالفتح ثم السكون ، وتخفيف الراء ..! كأنه ان كان عربيا. من الاستنقاع . تقول مقرت السمكة فى الماء والملح مقرا اذا انقعتها فيه ..! ومقرة مدينة بالمغرب بينها وبين طبنة ثمانية فراسخ. كان بها مساحة للسلطان ضابطة للطريق ينسب اليها عبد الله محمد بن الحسن المقري . ذكره السلفي فى تعاليقه (15) .. »

فياقوت الحموي المتوفى سنة 626 هـ حينما نص على ضبطه كلمة (مقرة) يكون اقدم نص « فيما نعلم » اهتم بهذا الضبط وبقي محفوظا ومعروفا الى الآن ..!

ويلي هذا النص فى الاهمية ، ان ابن خلدون المتوفى سنة 808 هـ وهو **ممن اتصل بأبي عبد الله** المقري قاضي فاس واخذ عنه وصاحبه. وعرف مدينة مقرة ، وذكرها فى تاريخه مرارا .. (16). ضبط بقلمه كلمة (المقري) بفتح الميم وسكون القاف ، وكسر الراء .. كما هو مثبت فى النسخة الخطية التى طبعت عليها النسخة المحققة بقلم الاستاذ محمد بن تاويت الطنجي .. (17) من كتاب :

« التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا »

وهناك نصوص اخرى نجدها عند ابي الوليد ابن الاحمر المتوفى سنة 808 هـ او سنة 810 هـ نقلها عنه السوداني فى نيل الابتهاج (18)

وعند ابن مرزوق الحفيد المتوفى سنة 842 هـ الذى الف (النورالبدري فى التعريف بالفقيه المقري..) (19) تؤيد هذا الضبط الذى نص عليه ياقوت .

بعد هذا صرنا نسمع نغمة اخرى .. وضبطا آخر .. وذلك ان السوداني فى نيل الابتهاج نقل عن الشيخ عبد الرحمن الثعالبي المتوفى سنة 875 هـ وعن ابي العباس الونشريشي المتوفى سنة 914 هـ انهما ضبطاها بفتح الميم وتشديد القاف المفتوحة (20) ...!!!

وجاء ابو العباس المقري المتوفى سنة 1041 هـ فوجد الخلاف قد نضج بين العلماء فى ضبط كلمة المقري ...

وعوض ان يرجع الى الاصول القديمة «ولاسيما نص ياقوت» وهو الحافظ المطلع المتبحر ... ويناقش المستند الذى اعتمد عليه المتأخرون فى ضبط كلمة « المقري » بفتح الميم وتشديد القاف..! بعد ان كان المتقدمون يسكنون القاف..! جارى الواقع الذى وجده ..! ان لم نقل أيده ودعمه . وقال فى كتابه نفح الطيب : « هما لغتان !» (21)

ثم صارت المسألة عند الذين كتبوا فى هذا الموضوع من اهل المغرب والمشرق – وما اكثرهم – مجرد نقل لهاتين « اللغتين ! »

بل وقع ما هو طريف .. وهو اننا صرنا نجد من يحاول التفرقة بين المقري الجد .. والمقري الحفيد ... فيسمي الاول مقريا .. بالتسكين .. ويسمى الثاني مقريا .. بالتشديد ..!

والحالة هذه وهما معا من اسرة واحدة تنتسب الى مدينة واحدة وهي مقرة ..!

واذا ضربنا صفحا عن هذا كله ورجعنا الى الواقع الذى يعرفه سكان هذه الناحية قديما وحديثا نجد ان (مقرة) بالقاف المعقودة هو الاسم الحقيقي لهذه المدينة ...

فاذا ثبت هذا فان النسبة الى مقرة تكون قد تدرجت هكذا :

قيل اولا المقري بالقاف المعقودة .. ثم تحولت الى (المقري) بالقاف المعهودة .. ثم اراد لها قوم (بدون دليل) ان تكون المقري بالقاف المعهودة المشددة ..! ثم جاء ابو العباس المقري ليقول لنا انهما لغتان ...!!

ثم يردد المتأخرون هذه الاصداء ..!

---

(15) مذكور فى صلة الصلة لابن الزبير ص 5 . ط. الرباط 1937
(16) انظر الجزء السابع من طبعة بيروت . ص 324 . و ص 326 .
(17) انظر ذلك فى ص 450
(18) ص 249 .
(19) البستان ص 164 . ط . الجزائر 1908 .
(20) نيل الابتهاج ص 249
(21) انظر ج 5 ص 205 . ط . بيروت 1968 م

الحـــوالـــة

الحوالة فى المعاجم اللغوية اسم من الاحالة بمعنى ان الغريم يحيل دائنه ويصرفه ليقبض دينـــه مـــن شخـص آخـر .. فالمصـدر الاحالـة .. والاسم الحوالة .. والاصطلاح الفقهي مبني على هذا المعنى اللغوي ..

. اما الحوالة فى العرف المغربي فانها تعني نقل ما فى صكوك الاملاك الشخصية والعائلية من شهادات وحجج تثبت ما فيها من اوقاف علـى المساجـد او المدارس او غيرهما من مشاريع البر والاحسان ..! الى سجل خاص يحتفظ به نظار الاحباس المتعاقبون على النظارة .

فالناظر مكلف بالسهر على اخذ نسخة او نسخ من كل تحبيس ويحتفظ بها لتكون حجة له او لغيره من النظار الذين يخلفونه فى استحقاق ما هو مـن الاحباس فى الوقت المناسب ..!

وتطلق الآن الحوالة ويراد بها ذلـك السجـل الكبير الذى يحتوي على ما يتصرف فيه الحبس من اصول وعقارات فى الحاضرة والبادية ..!

ولهذه الحوالة اهمية بالغة فى الاحتفاظ بكثير من الاعلام والمعالم والخطط والعادات والاصطلاحات والكلمات الحضارية .. !

وقد كان الاقدمون يسمون الحوالة باسم آخر وهو : زمام تكسير الاحباس ..!

ولا نستطيع ـ مع الاسف ـ ان نحـدد الزمـان الذى استعملت فيه كلمة ـ الحوالة ـ بـدلا مـن « زمام تكسير الاحباس ».. لان المصادر تعوزنا ..

الـــوادي

الوادي فى المعاجم اللغوية : المنفرج بين الجبال والتلال والآكام .. وله معان مجازية معروفة ..!

الا ان اهل الاندلس والمغرب اشتهر وذاع عنهم قديما وحديثا انهم يسمـون النهـر الجـاري باسم الوادي ..! ومن اجل ذلك لا نتحرج هنا فى المغرب من ان نقول ونكتب :

— وادي أم الربيـــع
أو نهـــر الربيـــع

— وادي سبـــو
أو نهـــر سبـــو

— وادي ابـي رقـراق
أو نهـــر ابي رقـــراق

— واوديـــة المغـــرب
أو انهـــار المغـــرب

الا ان البحث ادانـي الى ان هذا ليس شيئـا خاصا بالاندلس والمغرب ..! فان الحافظ المؤرخ الثقة ابا نعيم الاصبهاني المتوفى سنة 430 مؤلف (الحلية) وغيرها من المؤلفات المفيدة .. ذكر فى كتابه «اخبار اصبهان » الوادي بمعنى النهر .. والاودية بمعنـــى الانهـــار ...! (22)

ولا ندري كيف ومتى انتقل هذا الاصطلاح من هناك الى هنا او من هنا الى هناك !!

---

(22) انظر اخبار اصبهان ج 1 ص 30 مطبعة بريل 1931 م